الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف–المسيلة

جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Boudiaf - M'sila

مخبر الشعرية الجزائرية
Laboratoire de la Poétique Algérienne
Université de M'Sila

مخبر الشعرية الجزائرية

شهادة مشاركة

يشهد السيد مدير مخبر الشعرية الجزائرية، والسيد عميد كلية الآداب واللغات بجامعة المسيلة،أن الدكتور:**حسين مبرك**–جامعة المسيلة،قد شارك في أشغال الندوة العلمية الوطنية الثانية–**الرواية والكتابة السيرذاتية**–، من تنظيم مخبر الشعرية الجزائرية بالتنسيق مع كلية الآداب واللغات–جامعة محمد بوضياف المسيلة،وذلك يوم:05/نوفمبر/2019م،بمداخلة موسومة ب:**الرواية الجزائرية والكتابة السيرذاتية بين الواقع والمتخيل.**

المسيلة في:2019/11/05م

عميد الكلية

عميد كلية الآداب واللغات
عمار بن لقريشي

مدير مخبر الشعرية الجزائرية

مدير مخبر الشعرية الجزائرية
أ.د. فتحي بوخالفة

جامعة محمد بوضياف المسيلة كلية الآداب واللغات

د/حسين مبرك قسم اللغة والأدب العربي

الندوة الوطنية: الرواية والكتابة السّير ذاتية

المداخلة : الرواية الجزائرية والكتابة السير ذاتية بين الواقع والمتخيَّل

تربط كثير من النظريات بين فنَّ الرَّواية ومفهوم التَّخيل ، في حين تربط السَّيرة الذاتية بالواقع . فالسَّيرة الذاتية تقوم على إفصاح الكاتب بأنَّه يسرد حياته ، ويعبَّر عن أفكاره وتجاربه ، ويترجم هواجسه ومشاعره ، وهذا الإفصاح هو ما يسمَّيه " فيليب لوجون" بميثاق السَّيرة الذاتية . أمَّا الرَّواية فتنبني على ميثاق تخيلي ، يُعرب فيه الرَّوائي عن أنَّ ما يحكيه هو من صنع التخيل ، ومن ثمَّ فإنَّ أيَّ وجه شبه بين الأحداث والواقع هو محض مصادفة .

ولكي يكون هناك سيرة ذاتية / أدب شخصي يعبَّر عن الذات / ينبغي أن يتوفر ما يسمَّى " الميثاق الأتوبيوغرافي" ، إلى جانب وجود تطابق بين المؤلَّف والسَّارد والشَّخصية ، في مقابل الميثاق الرَّوائي الذي ينتفي فيه هذا التَّطابق ،، ليبرز التَّخيل كآلية تسدَّ مسدَّ ميثاق السَّيرة الذاتية.

وقد ظلَّت الرَّواية الجزائريَّة وقتا طويلا ترزح تحت نير الإيديولوجيا، ولاسيما في الفترة التي سادت فيها الاشتراكية ، وبسطت نفوذها على السَّاحة السَّياسية بوصفها خيارا تبنته السلطة التي كانت تدير دفَّة الحكم يومئذ . ومن الطَّبيعي أنَّ الرَّواية بوصفها جنسا أدبيا تتأثر بالبيئة التي تنبتُ فيها ، فتتلوَّنُ بلونها وتصطبغُ بصبغتها وتنطبعُ بطابعها ، لذلك فليس غريبا أن كانت التَّجربة الأدبية في هذه الفترة ظلًّا للخط الإيديولوجي ، من حيث المحتوى والمضمون ، وقد أشار بعضُ الدَّارسين إلى هذا المنحى الذي نحته الرَّواية الجزائرية في مسيرتها ، على نحو مانراه في الدَّراسة التي قام بها " إبراهيم عبَّاس" لرواية " اللَّاز "للطَّاهر وطَّار" ، بقوله:" اللَّاز من ذلك الطِّراز الرَّوائي الذي يتداخل في الأدب بالتَّاريخ إلى حدَّ الاندماج بوعي فنَّان قدير عارف بماهية الموضوع ومتعمَّق لأغواره موضوعيا وفنَّيا "[1] ولم تكد تتجاوز هذه الرؤية التي باتت بمثابة مشروع مجتمع لا فكاك منه ، وضرورة حضارية لا مناص منها" الشيىء الذي حوَّل هذه الأعمال الإبداعية من شكلها ووظيفتها الجمالية إلى خطابات إيديولوجية موجَّهة ومؤطَّرة"[2] ، ومن ثمَّ فقد يتبنَّى الرَّوائي فكرة سياسية

[1] - إبراهيم عباس : الرَّواية المغاربية الجدلية التَّاريخية والواقع المعيش ، منشورات المؤسَّسة الوطنية للنَّشر والإشهار والاتَّصال ، الجزائر ، ص 17

[2] - محمد مصايف : دراسات في الادب والنَّقد ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1988، ص 22

ويحاول تجسيدها في قالب روائي ، غير أنَّ مايعاب على هذا اللَّون من الرِّوايات ضعف الجانب الجمالي والفنِّي فيها ، ويضيف ""إبراهيم عباس" في سياق حديثه عن تأثر الرِّواية الجزائرية بالمدِّ الإيديولوجي والزَّخم التَّاريخي ، قائلا:" في جزئها الأوَّل كتابة لفترة تاريخية محدَّدة من وجهة نظر محدَّدة أو وعي المبدع ، بكلِّ ذلك التَّاريخ المفتوح ، فهي تحكي لنا النِّضال الوطني ضدَّ الاستعمار الدَّخيل ، ويتخلَّل هذا الحكي حكاية تعامل الثَّورة مع الحزب الشيوعي ، وهي بذلك ترفع السِّتار عن تصادم إيديولوجي بين فئتين بارزتين من خلال أحداث الثَّورة "[1] ، ونشيرُ إلى أنصه لا يضيرُ الرِّواية ولا يعيبُها ، ولا ينتقص من قيمتها ، حين تحمل بين طيَّاتها نفسا سياسيا ، شريطة ألَّا يطغى هذا النَّفس على مضمونها ، ويحوِّلها إلى مجرَّد دعايات وبيانات وخطابات إيديولوجية ، ذلك "أنَّ الفكرة لا تصيرُ أدبا إلَّا إذا استحالت إلى شعور ، أو إلى برهة في بنية الوجدان، وما ذاك إلَّا أنَّ هو كل شيىء في الحياة البشرية "[2]

ولعلَّ تدافع النِّزعات وصراع الأفكار ، هو أحد بواعث الإبداع والتَّميز والإجادة في العمل الرِّوائي ، باعتبار أنَّ الخطاب الرِّوائي هو " الطَّريقة التي تقوم بها المادَّة الحكائيَّة في الرِّواية، وقد تكون المادة الحكائيَّة واحدة، لكن ماتغيَّر هو الخطاب في محاولة كتابتها ونظمها "[3] ، ومن ثمَّ يختلف الخطاب الرِّوائي، حتصى وإن كان موضوع الحكِّي واحدا ، ومادته واحدة ، بشخصياتها وزمانها ومكانها وفضائها ، بناء على تعدد الأدوات والعناصر الفنِّية والجمالية ، وكذا اختلاف التَّصورات وتفاوت الخبرات ، وتعدد الرؤى والتَّوجهات السِّياسية والثَّقافية والاجتماعية .

وفي هذا السِّياق قدَّم الخطاب الرِّوائي الجزائري نماذج ونصوصا تجسَّد الواقع وتعبِّر عن إشكالاته، وما يتأجج فيه من صراعات وتناقضات، بوصف الرِّواية أقدر الأجناس الأدبية على رصد الواقع ، وتحليل معطياته وتسليط الضَّوء على قضاياه وتحويل الواقعي إلى تخييلي ، ومن النَّماذج الرِّوائية التي تجسد لنا هيمنة صوت السَّارد، من خلال الأحلام والذكريات في تفاعله مع الواقع، واستدعاء التَّاريخ وتخييله ، والتَّعبير عن مواقف ذات دلالات تاريخية اجتماعية وإيديولوجية ، على نحو مانلقاه من خطاب على لسان الرَّاوي في رواية " جسر للبوح وآخر للحنين " لزهور ونيسي "..".قبل أربعين عاما حملت حلمي بين أضلعي ، حلمك أيها الغريب لم يتحقَّق .." ، وهو شاهد يعبِّر عن ملامح التَّحول الاجتماعي في الجزائر المستقلَّة المرموز له بالروح الوطنية التي تختزل الكفاح إبَّان حرب التَّحرير ، أمصا وصفه

---

[1] - إبراهيم عباس : الرِّواية المغاربية ، ص 16

[2] - المرجع نفسه ، ص 17

[3] - سعيد يقطين : تحليل الخطاب الرِّوائي ، الزَّمن السَّرد التَّبئير ، المركز الثَّقافي العربي ، الدَّار البيضاء ، بيروت ، ط1 ، 1977، ص7

لشوارع قسنطينة ، فهو رثاء لها ، حين يقول :" تمر الأجيالُ لتبقى تلك الحضارة تركة للعالم أجمع وثراء للإنسانية كلِّها ، هذه هي الحضارة ، ويبدو أنَّ أهل مدينته يدركون ذلك ليس بهذا المعنى ، ولكن على الأقل بمعنى أنَّ هذا ماضيهم ، تاريخهم مهما اختلف البشرُ .."[1].

أمَّا رواية " لونجة والغول "، فيحاول فيها السَّارد رسم نموذج للمرأة الثَّائرة الواعية ، وهي أرملة شهيد نفذ فيه حكم الإعدام، فالتحق بجيش التَّحرير للثَّأر من المستعمر الغاصب للوطن والحريَّة ، حيث يقول :" إذا كان الهدف من عملي هذا هو الثَّأر كما تقولين ، فإنَّه يبدأ من زمن بعيد جدًا ، فقد استشهد والدي وعمِّي في أحداث 1945 بخرَّاطة ، واستشهد قبل ذلك بكثير جدِّي لأمِّي في ثورة الزَّعاطشة بالجنوب .."[2] .

أمَّا رواية " من يوميات مدرسة حرَّة " فهي رواية تتداخل وفنَّ السِّيرة الذاتية ، حيث يلتحم السَّرد التَّخييلي مع وقائع وأحداث حقيقية ذاتية تتَّصل بالمبدع ، ومن ثمَّ استحال سرد السِّيرة الذاتية في هذه الرِّواية إلى سرد قصصي يتعالق بأحداث وتفاعلات سردية لا تنفصل عن حياة الكاتبة ، باستخدام ضمير المتكلم، كآلية لكسر تقاليد التَّخصص في الأجناس الأدبيَّة ، ينضاف إلى ذلك أنَّ سرد حياة الكاتبة قد انفتح على عوالم أخرى وتجارب مختلفة من الحياة في سياق أحداث الرِّواية .

ولعلَّ عتبة الرِّواية قد أشارت إلى الحركة الاستباقية التي حقَّقتها الرِّواية / السيرة من خلال انتقال الضمير "أنا" من زمن الالتحاق بمنصب التَّعليم في المدرسة، إلى زمن سرد أحداث الفصل ، وزمن الثَّورة الذي انطلق لحظة اشتغالها كمدرِّسة .."[3] وكذلك الفضاء الواقعي للأحداث يتحوَّل إلى مكان إبداعي تخييلي متَّصل بالسِّيرة الذاتية للرِّوائية ، وصار المكان في كثير من التَّجارب الرِّوائية يعبِّر عن عوالم متخيَّلة تعبصرُ عن رؤية الكاتب، وآلية جمالية تحيل على الكثافة والتَّراكم والتَّعدد ، في الصور والمشاهد والتَّجارب والرؤى، ومن ثمَّ فإنَّ التَّلاقح بين الواقعي والذَّاتي والتَّخييلي ، وتآلف الأحاسيس والحقائق يؤدِّي إلى إنتاج تجربة مايعرف بأدب الالتزام كما يمكن تداخل الواقعي الرَّاهني مع التَّخييلي ، والتراثي الواقعي بالتَّخييلي وكلها آليات تتيحُ للكاتب استيعاب معطيات المحيط الجديدة وتناقضاته ومفارقاته، وهو الأمر الذي يهيِّىء الرِّواية للتَّأويل وتعدد القراءات .

---

[1] - زهور ونيسي : جسر للبوح وآخر للحنين ، منشورات زرياب ، ص8

[2] - زهور ونيسي : لونجة والغول ، مطبعة دحلب ، الجزائر ، ص 81 ، 82

[3] - زهور ونيسي : من يوميات مدرسة حرَّة ، الشركة الوطنية للنَّشر والتَّوزيع ، الجزائر ، 1979

إنَّ الرِّواية هي رؤية ومعرفةٌ تتَّصل بنسج علاقات الإنسان بالظَّواهر الاجتماعية والحياة عامَّة ، بل هي تجسيد فضائي وزماني للرؤية المكتسبة عن طريق البحث والخبرة والمراس والمران والاستقراء .

لقد عرفت الرِّواية الجزائرية تطورا ملحوظا ، بفعل عوامل تتعلَّق بعمليات النَّقل والتَّرجمة ، الأمر الذي أتاح لها اكتساب آليات الرِّواية الحديثة ، فاتَّسعت آفاقها وتعدَّدت طرق تشكيلها ، وتقنيات بنائها ، بعدما سيطر عليها المضمون الإيديولوجي لسنوات السَّبعينات ، وهو ما انعكس عليها سلبا ، على مستوى البناء الفنِّي ،وهيمنة الأسلوب التَّقريري المباشر عليها ، في حين تبقى " النصوص المتميِّزة شكلا ومضمونا تكتسب وجودا مغايرا لتجلِّيات التَّاريخ العربي كما تؤطِّره الخطابات الرَّسمية وتختزله التَّحليلات الإيديولوجية التَّعميمية "[1] . ولعلَّ هذه الارتباط بالواقع ارتباطا آليا ، ورصد أحداثه ووقائعه بأمانة هو ما أفرغ الرِّواية من بعدها الفنِّي والجمالي بل إنه" من الدَّواعي الموضوعية التي حدت ببعض الرِّوائيين إلى السَّطحية والخطابية الفجَّة في أعمالهم الرِّوائية الرَّبط الآلي بين الكتابة والواقع، والإيمان السَّاذج بأنَّ الكتابة في خدمة الشَّعب أو الثَّورة والإيديولوجيا.."[2]

إنَّ فنِّية الرِّواية الرِّواية تعني أنَّها ليست مجرَّد مرآة عاكسة تغطِّي الأحداث الواقعية والتَّاريخية ، وتصف العلاقات الاجتماعية ، وإنَّما هي رؤية متميِّزة وثاقبة ، تعبِّر عن حياة الإنسان وهمومه وآلامه وآماله بصورة فنيَّة ، مفعمة بالجمال والتَّكثيف وصياغة جديدة للواقع ، وإعادة بنائه في ضوء تقنيات فنيَّة ،باعتبار " أنَّ الرِّواية كائنٌ حي تتشكَّل بذاتها وبغيرها ، وهذا لا يعني أنَّها مجرَّد كيفية فحسب، بل هي مكوَّن جمالي حيوي له قدرة لا متناهية على البقاء ، حاله في ذلك حال الروح بعد زوال الجسد.."[3]

لذلك فإنَّ الرِّواية ترتبط بالواقع ارتباطا وظيفيا تداوليا ، من خلال اختراق هذا الواقع أو ترميمه ، أو سدَّ مافيه من ثغرات ، وإصلاح مافيه من مفاسد وتشوهات ، أو رفضه ، غير أنَّ ذلك لا يعني أبدا انفصال الرِّواية بما فيها من عوالم وعناصر ومؤثِّرات وشخصيات عن الواقع ، بل إنَّ هناك تبادلا بين البنيتين ، بنية عالم الرِّواية وبنية الواقع ، وهذا ما حدا بواسيني الأعرج في إحدى حواراته ، حول روايته" مسالك أبواب الحديد" عن الأمير عبد القادر " ربَّما تكون هي الرِّواية التي قدَّمته بشكل كبير إلى القارىء العام أو المثقَّف العادي ، وهي رواية إشكالية بداية من أنَّها رواية تاريخية ، عن شخصية شديدة الثَّراء والخلافية ، مكتوبة بلغة عربية

[1] - محمد برادة : فضاءات روائية ، منشورات وزارة الثَّقافة ، الرباط ، ص 66
[2] - علال سنقوقة :أين تتَّجه الرِّواية العربية في الجزائر ، مقال بجريدة الخبر ، ع 1889 / 1997/2/12
[3] -عزيز نعمان : جدل الحداثة وما بعدالحداثة في نصّ "سيمرغ" لمحمد ديب ، دار الأمل للطِّباعة والنَّشر ، الجزائر ، 2002 ، ص 13

متعدِّدة المستويات ، تتماس مع أفكار كبرى مثل التَّسامح والحوار مع الآخر والتَّحضر والتَّخلف والنَّضال والخيانة "[1] ، ومن ثمَّ فإنَّ الرِّواية الجزائرية المعاصرة باتت تسائل الواقع ، وتحاول أن تتجاوزه ، وتكسر رتابته ، وصارت تحاكي نظيرتها في المشرق ، وتترسَّم خطى الرِّواية الغربية ، التي بلغت شأوا كبيرا في النضج الفنِّي ، وسعة الأفق ، لأنَّ " أيَّ كاتب روائي يجب أن ينشىء عالمه ، وهذا العالم ينشأ لديه عبر كتابته ، وسواء انصرف الأمر إلى وصف لظاهرة تقنية ، أو لوضع اجتماعي على وجه الإطلاق ، أو لحركت داخلية ، فإنَّ الرِّواية ليست نتاجا ، ولكنَّها إبداع "[2] ، لأنَّ أهمَّ خاصية للرِّواية هي " ظاهرة البعثرة لما هو خطِّي وأفقي في الواقع ، وخلخلة منطقة الثَّبات والسكون الذي يحكم أحداث الواقع المنجزة "[3] .

إنَّ العمل الرِّوائي هو خلق لواقع افتراضي ومثالي جديد ، يمتزج فيه الواقع بالخيال ، والحقيقة بالأسطورة ، "لأنَّ الواقع في نظر الرِّوائي هو المجهول ، هو المحجوب ، وهو الوحيد الذي تتوجَّب رؤيته ، وهو فيما يبدو أوَّل ما يتوجَّب إدراكه ، وهو مالا يقبل التَّعبير عنه بأشكال معروضة ومستهلكة "[4] ، ومن خلال وسائط لغوية ورؤى خيالية ، يحاول الرِّوائي قراءة العالم المحيط به ، من خلال التعبير عن خلجات نفسه ، وخواطره ، ويترجم أحلامه وآماله ، ويعبر عن مواقفه من الحياة ، وإضفاء صبغة جمالية عليها ، من شأنها أن تستهوي القرَّاء ، بفعل خصائص الصِّياغة ، وتقنيات المغامرة والمغايرة ، والاختلاف والمساءلة التي يبنى عليها فن الرِّواية ، وغيرها من التِّقنيات التي يعتد ويعتمد عليها الرِّوائي كالحذف والإثبات والانتقاء والاقتطاع ، بحسب مايتَّفق مع رؤيته وغايته "[5]

إنَّ الرِّواية هي رؤية قبل أن تكون قالبا أو تشكيلا فنِّيًا ، وهذه الرؤية تقوم على أساس طرح أسئلة والإجابة عنها ، وهي : لماذا أكتب ؟ ماذا أكتب ؟ وكيف أكتب ؟ لذلك فالرِّواية تقوم على الرؤية والتَّشكيل الفني لمادة غير جاهزة ، لأنَّ " عملية توليد النَّص قد تفرض على الكاتب مسارا لم يكن قد برمجه ولا توقَّعه ، ممَّا يضطره إلى تعديل منطلقاته الأولى أو التَّراجع عنها "[6] ، ومن ثمَّ فإنَّ عملية تخلق النَّص الرِّوائي تمر عبر مخاض ومعاناة يقع تحت وطأتهما الرِّوائي في تعامله مع المادَّة التي يستمدها من تجاربه في الحياة ، وتحت ضغط هذا الصِّراع والتَّجاذب تتشكَّل بنية

---

[1] - حوار صحفي مع واسيني الأعرج حول الكتابة التَّاريخية للرِّواية .

[2] - عبد الملك مرتاض : في نظرية الرِّواية ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثَّقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ديسمبر ، 1998 ، ص 14

[3] - صالح مفقودة : المرأة في الرِّواية الجديدة ، دار الشروق للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع ، الجزائر ، ط 2 ، 2009 ، ص35

[4] - المرجع نفسه ، ص36

[5] - انظر : عادل فريحات : مرايا الرِّواية دراسات تطبيقية في الفنِّ الرِّوائي ، منشورات اتِّحاد كتَّاب العرب ، دمشق ، 2000 ، ص20

[6] - إبراهيم سعدي : الأدب من منظور عبد الحميد بن هدوقة ، الملتقى الوطني الثَّالث لعبدالحميد بن هدوقة ، دار هومة ، الجزائر ، 2000 ، ص24

الرِّواية ، ويرتسم خطها الجمالي ، وتتشكَّل العلاقة مع الواقع والنَّص والذات ، أخذا وعطاء ، تأثيرا وتأثرا ، اقترابا وابتعادا ، حينها يتداخل المجاز بالحقيقة ، وتتقاطع البنى اللغوية مع المرجعيات الثَّقافية ، وينصهر بناء الرِّواية مع مضمونها

ولهذا باتت الرِّواية الجزائرية في ظلِّ مواكبة هذا الحراك الرِّوائي ، أكثر حيوية وحركية ومرونة " ينقض المسلَّمات الجامدة والتَّقاليد الثَّابتة والأعراف الخانقة ، وصياغة السؤال الَّذي يولِّد السؤال ، وممارسة حرية الإبداع في أصفى حالاتها "[1] .

وفي هذا السِّياق عرفت الرِّواية الجزائرية تجارب روائية تندرج ضمن الرِّواية الجديدة المنفتحة التي تستلهم ألوان تشكيل السَّردي على مستوى الرؤية والبنية ، وباتت أكثر فنِّيَّة ونضجا ، وتحرَّرت من تقاليد الكتابة الرِّوائية الكلاسيكية ، على نحو مانراه في روايات " واسيني الأعرج " التي تحاول مساءلة الواقع وتجديده ، وتعبِّر عن ثقافته وأفكاره وخبراته وفلسفته في الحياة ، وتجاربه المرتبطة بسيرته الذاتية ، معتمدا على سعة خياله ورحابة أفقه ، جريا على تقاليد الرِّواية الجديدة التي " ترفض الشَّكل التَّقليدي الذي يهدف إلى إعادة التَّوازن في الحياة ، لا يعني هذا أنَّ هذه الأعمال ترفض الشَّكل التَّمثيلي كليَّة ، فهي لاتستطيع الفكاك من هذا الواقع الذي تنبع منه أصلالا ، ولكنَّها إذ ترتبط به على نحو ما تمليه القدرة على أن يكون انعكاسا للحياة ، في الوقت الذي فيه إمكانات النَّص بوصفه نتاجا للفكر ومولدا له ، إنَّها تعتمد إرخاء العلاقة التَّقليدية بين الشَّكل والواقع ، وعندئذ تبدو الهوَّة لأوَّل وهلة عميقة بين النَّص الرِّوائي والحياة ، بل إنَّ المسافة قد تكون في بعض الأحيان من الاتِّساع ، بحيث يصعب على القارىء اجتيازها"[2] ، كما نلحظ في روايات واسيني الأعرج كأنموذج للرِّواية الجزائرية المعاصرة ، أنَّها تطفح بنبرة ، فيها غير قليل من الحيرة والدَّهشة والذهول ، مفعمة بالإحساس بالفجيعة ، فلم يكتف لذلك بالسَّرد المباشر والوصف السَّطحيى ، ولكنَّه يحاول أن يتعمَّق نفسه ويقرأها في ظلِّ خبراته ومواقفه وتصوراته ، وهو ما نلمسه في رواياته " فاجعة اللَّيلة السَّابعة بعد الألف " و"سيِّدة المقام" و" حارسة الظلال " ، وفيها تبرز ملامح التَّجديد وخصوصيات الكتابة ، وطريقة التَّعامل مع الواقع ومزج السِّيرة الذاتية بتحليل الواقع واستشراف المستقبل ، ومن ثمَّ فإنَّ الرِّواية هي فنٌّ قوامه الخيال الخصب المجنَّح الذي يحلِّق في فضاءات الإبداع ، ويحاول إعادة صياغة جديدة لما هو موجود مسبقا ، بما تمنحه عناصر الكتابة الفنِّية من إمكانيات الخلق الجديدة ، ومن هنا يمكن أن نُعرِّف التَّخيل

[1] - عزيز نعمان : جدل الحداثة ومابعد الحداثة ، ص 14
[2] - انظر : عبدالملك مرتاض ، في نظرية الرِّواية ، ص20

الرِّوائي بأنَّه إقامة وتشكيل عوالم ممكنة "[1] في ضوء رؤية تغذيها عوامل تتَّصل بالواقع و حياة المبدع ، وسيرته الذاتية وماضيه وحاضره ، ولا تنفك عن مستقبله ، فتنصهر هذه العناصر في بوتقة الإبداع ، وتتمخَّض عنه أعمال حيوية تعج بالحركة والفاعلية والمغايرة والتَّجدد ، تتجاوز الرَّاهن والمباشر ، وتُحطِّم كل ماهو متشابه وسطحي ومكرور " فالواقعي يستحضر عبر التَّخييل ، والرِّواية هي أكثر الأجناس الأدبية استحضارا للواقع وأكثر قدرة على الإحاطة بأخباره ، كما أنَّها تجنح إلى الخيال فتستثمره وتستقطبه "[2] ، وهذا ما نلمسه في روايتي " ذاكرة الجسد " و" عابر سرير " لأحلام مستغانمي ، وفي بعض روايات "عز الدين جلاوجي" ، مثل :"سُرادق الحلم والفجيعة " ، في هذه الأخيرة نرى أن البطل هو الرَّاوي ، يروي قصَّة المدينة " الحلم" التي هام بها ، فراح يتغنَّى بسحرها وجمالها حدَّ الوجد الصوفي ، متَّخذا المرأة وسيلة لولوج هذه المقامات السَّامية ، وتطعيمها برموز مستمدَّة من الخرافة والحكاية الشَّعبيَّة الرَّابضة بداخله منذ زمن الطفولة ، ولا زالت تعيش في مخياله ووجدانه ، بل كثيرا ما ينقل لنا الرِّوائي صورة المكان من خلال ذاته ، ويتفاعل مع الزَمن كأنَما هو قطعةٌ من نفسه وجزءٌ من حياته ، ذلك أنَّ المتخيَّل يتشكَّل من نموذج حاضر في ذهن الرِّوائي ، الذي يعمل على صهره بالواقع ، لتتشكَّل هذه الصورة من عوالم مختلفة ، توهم القارىء بواقعية الحدث ، رغم أنَّ مادتها تتكوَّن من عناصر مختلفة يمتزج فيها الحلم بالخيال ، والأسطورة بالواقع ، والسيرة الذاتية بالتَّاريخ ، والحاضر بالمستقبل ، " دون أن يستشعر في غموض أنَّها صادرة من بناء آخر ، وأنَّها ستصير أكثر فأكثر ندرة بقدر ما يجري فيها تيار مختلف عن ذلك الذي كان يبقيها مجتمعة "[3] ، غير أنَّ هذه التَّقنية ليست متاحة ، ولا هي في مُتناول كُلِّ روائي ، لأنَّها تحتاج إلى كثير من المران والمراس والدربة بهذا الفنِّ ، ووعي بمسالكه وشروطه ، وإحاطة بتقنياته وأدواته ، " لهذا ظلَّت وسيلة المبدع فيما يخص الإبداع الأدبي وستبقى على الدَّوام الإيهام بواقعية الحدث بواسطة التَّمثيل أو التَّأثير بسحر وإمكانات اللغة عن طريق الصورة الشَّعرية والرموز وتوظيف الأساطير ، وحكايات التَّاريخ والمجاز بشكل عام " [4]

وقد عكست الرِّواية الجزائرية المعاصرة هذه المعادلة الجديدة ، وراح الرِّوائيون يتلمَّسون هذه الأدوات والخصائص في نتاجهم ، وتحوَّل الشَّكل من مجرَّد وعاء جامد إلى آلية لتفعيل الدَّلالة ، وتعد رواية "حارسة الظلال" لواسيني الأعرج "نموذجا للرِّواية الجزائرية المشبعة بالعالم التَّخييلي الزَّاخر بالرموز والدَّلالات المستوحاة من

---

[1] - الموبقن مصطفى : تشكل المكوَّنات الرِّوائية ، دار الحوار ، اللَّاذقية ، سوريا ، ط1 ، 2001 ، ص43

[2] - المرجع نفسه ، ص 112

[3] - بيير شارتيه : مدخل إلى نظرية الرِّواية، ترجمة : عبد الكبير الشرقاوي ، دار توبقال ، المغرب ، ط1 ، 2001 ، ص34

[4] - حميد لحميداني : القراءة وتوليد الدَّلالة ، المركز الثَّقافي العربي ، الدَّار البيضاء ، بيروت ، ط1 ، 2003 ، ص 8

سيرته الذاتية ، ومن البيئة التي عاش فيها الكاتب ، والظروف الاجتماعية والسِّياسية التي أحاطت به ، وتفاعله مع التحولات التي عرفتها الجزائر ، وما ينبغي أن تكون عليه في المستقبل ، في صورة مفعمة بالرَّمزية للدَّلالة على الجزائر الممحونة المفجوعة الجريحة التي قد تضعف لكنها لا تموت ، بل تنبعث وتنهض من جديد ، من خلال قوله:" السِّرُ الكبير في هذا البلد هو قوَّته اللَّامتناهية على التَّجدد والولادة ، من أشلائه وآلامه يعيد خلق نفسه باستمرار في اللَّحظة التي يظن فيها الجميع ، الأصدقاء والأعداء ، أنَّه انتهى ، ينشأ من رماده "[1]

و"حارسة الظِّلال" بوصفها أنثى هي رمز للخصب والتجدد والانبعاث والحياة ، إنها عصيَّة على التبدد والاندثار والزَّوال ، ترتبط بالحلم في التَّغيير ، ورفض حياة الظلام والعبودية والجهالة والتوحش والتخلف ، ومن خلالها عبَّر " واسيني الأعرج " عمَّا يجيش في صدره ، ويعتلج في نفسه ، متَّخذا من التخيل والرَّمز أداة للكشف عن تجربته والتَّعبير عنها .

وفي هذا السِّياق ذهب " مرزاق بقطاش " إلى مقاربة مسار الرِّواية الجزائرية بقوله :" الرِّواية على حداثتها كان لها أثر واضح بما جدَّ في الرِّواية العربيَّة المشرقية والرِّواية العالميَّة ، فأنت تجد فيها الواقعية الاشتراكية ، وتجد فيها الرَّمزية وتجد فيها الواقعية المحضة ...هذا التَّأثر بالمدارس المختلفة أحدث دون شكَّ تأثيرا في المضمون ، وفي الطَّابع الإيديولوجي "[2] . ولعلَّ سبب هذا هذا الحراك الذي عرفته الرِّواية الجزائرية " يعود إلى تذبذب المخزون الحضاري عندنا ، بمعنى أنَّنا مازلنا نبحث عن أنفسنا وعن الصِّيغة المثلى التي تجعلنا أكثر ترابطا وارتباطا بواقعنا وأصولنا وبالعالم الذي نعيش فيه "[3] ، لذلك فإنَّ زاوية الرؤية عند الرِّوائي بصفة عامَّة تتَّصل بالتِّقنية المستخدمة لحكي السَّرد المتخيَّل ، بحسب الرسالة التي يريد إيصالها الرِّوائي في قالب يتجاوز ما هو قائم وكائن إلى التَّأثير في المتلقِّي وإمتاعه ، أمَّا السَّارد فقد يكون صاحب النَّص الرِّوائي ، وقد يكون شخصية مستقَلة ، أو هو رمز لالتقاء الماضي والحاضر والمستقبل .

لقد استطاعت الرِّواية الجزائرية توظيف الرَّمز كقناع يتستَّر خلفه الكاتب ، ذلك أنَّ الرِّوائي المبدع هو من يواري قناعاته وانتماءاته الإيديولوجية والفنَية ، لأسباب سياسية أو اجتماعية ، لأنَّه يدرك أنَّ الغموض والقناع والإيهام والرَّمز والتَّكثيف ، هي آليات تحقِّق للنَّص من الأدبية و السلطة والقوة ما لا يتحقَّق عبر الخطاب المباشر ، ثمَّ إنَّ الإفصاح عن الذات ، وما يعتريها من أحزان ، وما ينتابها من

---

[1] - واسيني الاعرج : حارسة الظِّلال ، دار الجمل ، ألمانيا ، 1999 ، ص 190

[2] - مرزاق بقطاش : حوار مع الأديب ، أجراه معه الطاهر يحياوي ، جريدة المساء ، 21 /1989/11

[3] - مرزاق بقطاش : المرجع نفسه

شعور بشكل تقريري خطابي ، هو أسلوب لا يليق بفنَّ الرِّواية ، التي ينبغي أن تطَّرح الشروح والتَّوضيح ، وألَّا تقدَّم الأحداث بصورة باهتة ، دون إبهار أوإثارة أوإشكال أوتساؤل .لذلك فقد أنجبت البنية الجديدة الرِّواية الجزائرية توازيا بين الواقع الغائب / التراث والتَّاريخ / والواقع المرئي الرَّاهن ، كما تولَّد عن هذه البنية معارضة نصيَّة للواقع عن طريق التَّخييل ، أو من خلال تعرية هذا الواقع ، وكشف زيفه ، ورصد اختلالاته ، ومحاولة تقويم مظاهر الرَّداءة ، إلى جانب ذلك فقد شكَّلت الرؤية السَّردية داخل النصوص الرِّوائية التي أشرنا إليها ملمحا على ارتفاع منسوب الوعي بالذات ، وفهم الواقع ، واستثمار التَّاريخ في النهوض بالحاضر ، واستشراف المستقبل ، كما تجلَّت خصوصية الخطاب السَّردي ، من خلال تماهي الواقعي الثَّوري والواقعي الرَّاهني بالتَّخييلي ، وهو ماجعل الرِّواية تنأى عن كل أشكال التَّعبير التي تجاري الواقع ، وتعكس أحداثه وتسجِّل وقائعه .

كما أبانت هذه التَّجارب عن ظاهرة اختلاف السِّياقات اللغوية والاجتماعية ، وتناقضها في أحايين كثيرة ، وأثر ذلك في خلق عالم إبداعي جديد يجمع بين الأنا والآخر ، ويعبِّر عن حالة من الوعي بخصوصية الفنَّ الرِّوائي الذي يقوم على استيعاب معطيات العصر ، وحاجات الإنسان ، والاستجابة لحركة التجديد والتَّغيير التي تفرضها الدَّورة الحضارية للأدب والإبداع بصفة عامَّة ، وهو ما فتح المجال واسعا أمام حركة النَّقد والتَّأويل والقراءة .

رابط **ملتقى الرواية** http://virtuelcampus.univ-msila.dz/fll/?p=252
والكتابة السير ذاتية